مفكرة

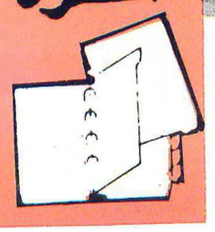

يوميات القصف العشوائي

– « لا تطيل الغيبة يا ابا حسن . سأقلق عليك . المسافة الى الفرن قصيرة » ،

– « ولكن صف الانتظار طويل يا امرأة . انت تعرفين . بالامس لم اوفق . نفذ الطحين وكان الصف لا يزال طويلا . صاحب الفرن راح يصرخ فينا ويقسم بالانبياء والرسل بأن الطحين قد نفذ ، حتى يفرقنا من امام الفرن .

اعرف ، اعرف . ولكن اريد ان اتأكد بأنك لن تمر على الحاج كما تفعل عادة من دون ان تنذرني . كيف لي ان اعرف بأنك مررت عليه ولم يصبك اذى ؟

– لا تقلقي يا امرأة . ما بالك ، كل يوم ذات الوساوس ، تحطمين اعصابك واعصابي .

وشلح ابو حسن سترته على كتفه ومشى . عليه ان يصل باكرا الى الفرن حتى لا يعود كالامس فارغ اليدين . لا يستطيع ان يشبع الاولاد من دون خبز .

– لا تمر على الحاج يا ابا حسن . عدني بذلك . ستنسى الوقت يمر واقبع انا هنا ا نتظر واتصور امورا مفزعة. القصف العشوائي ، الرصاص الطائش الذي يطلق في غير مكانه . انت تعرف ...

– اعرف ، اعرف جيدا .اعدك بأن لا امر على الحاج . ولا تقلقي ، سأسير مع الحائط . سأنبطح إرضا واشبك يدي خلف رقبتي فور سماعي بأنفجار ، وسأهرع الى اقرب مدخل بناية فور سماعي اطلاق رصاص . هل تطمئنين الان ؟!

★ ★ ★

وسار ابو حسن بخطوات ثقيلة . مشوار الفرن اصبح فرصة الخروج الوحيدة من البيت . كان قبل شهر يخرج يوميا ليبحث عن اي عمل يقوم به ليحصل على بضعة ليرات تقيه والعائلة من الجوع . كان يتوفق بضع مرات في الاسبوع . ولكن مع اشتداد حرب القذائف وازدياد الهجرة في الاشهر القليلة الماضية ، لم يعد يوفق بمن يحتاج الى ساعديه . وهو ايضا لم يفكر يوما بالهجرة . على من يتر كالاولاد وام الاولاد . كيف يعيلهم وهو في الخارج، بل ومن يضمن له انه سيجد عملا في اي مكان ترسو فيه الباخرة التي يستقلونها من ميناء صيدا ؟ و .. ترك الوطن صعب ..

وتابع سيره باتجاه الفرن . حاول حتى هناك . لكن لم يوفق. صاحب الفرن اعتذر بأن لديه ما يكفي من العمال ، ودعاه الى الصبر لان امثاله يعدون بعشرات الالاف في زمن الحرب. صحيح امثاله بالالاف ، ولكن كيف يتدبرون امورهم . انه يعرف كيف : كما يتدبرها هو . ولكنه دائما يطرح على نفسه هذا السؤال. وعصر كل يوم يتناول ما اعدته ام حسن بما يسد جوعه وينهض تاركا الاولاد يمسحون ما في الصحن ، وهو يحاول ان يقنعها بأنه شبع بينما هي تحاول بدورها ، ان تقنعه بالمثل .

كان في كل مرة يتصور بأن الغد سيختلف . بأن الامور لا يمكن ان تستمر بهذا السوء . ويذكر نفسه بأن المثل يقول يوم لك ويوم عليك ، وبأن الصبر مفتاح الفرج . ولكنه كفر . ان لها مفعول المخدر ، وقرر بأنهذا هو خطرها بالضبط .

امورا كثيرة كفر بها . يضايقه ذلك . « ماذا يحدث لي ؟ كان يتساءل بقلق ، ويقرر ان يبحث الامر مع الحاج . ولكنه كان دائما يتردد ثم يصرف النظر . الحاج طيب ، ولكنه بالتأكيد لن يفهم عليه . وفي احيان كثيرة كان يتمنى لو يحادث هؤلاء الشبان المتحمسين في مقرهم المجاور لبيته .ولكنهم يبدون دائما على عجلة من امرهم »...

★ ★ ★

الصف طويل امام الفرن . ولكنه كان متفائلا بأن دوره سيجيء اليوم . تحسس جيبه ليتأكد من وجود الليرة اليتيمة . لو كان يحمل واحدة اخرى لكان يشتري قطعة حلوى لحسن والطفلة . يضايقه ويريحه في آن ، ان حسن لم يعد يطالبه بقطعة حلوى كما من قبل . كان يلح عليه كلما خرج الى الفرن : « الن تأتينا بالحلوى ؟ كنت تفعل من زمان » .

كان يتوجس لحظة خروجه انذاك : سيقفز حسن عليه يقبله ويطلب اليه ان لا ينسى الحلوى . وكان يعده وهو يعرف بأنه سيعود الى البيت ، يناول ام حسن الخبز ثم يخبط يده على رأسه ويعتذر بأنه قد نسي ، ويتمنى لو تكون حركته المسرحية مقنعة ...

وشعر بالالم في صدره . بالامس ، وبعد صمت طويل ، طلب منه حسن ان يجيئه بقطعة حلوى ، ولكن باستحياء لم يعهده من قبل كأنه يذنب ...

سأشتري بنصف ليرة خبز وبالنصف الاخر اشتري قطعتي حلوى بالسكر . اتخذ القرار ، ولتقل ام حسن ما تريد . الارغفة القليلة ، تكفي ، وهو لا يشعر بالجوع اليوم ، على اية حال . وبدأ الضيق يزيح عن صدره ...

★ ★ ★

كان الانفجار مدويا عند باب الفرن ، طار ابو حسن مسافة امتار عديدة . تحسس جسده بيده . اين الاخرى ؟ الالم يلفه والسائل اللزج يتدفق دافئا . ماذا حدث لي ؟ لماذا لا استطيع الحراك ؟ لماذا يحملقون بي ويتهامسون ؟ ام حسن بأنتظاري . ستكون قلقة جدا . غيرتها الحرب ... ماذا يفعل هؤلاءالبلهان، الى اين يحملونني ؟ لماذا لا يسمعون ؟

وانطلقت سيارة الاسعاف تطلق صفارتها المشؤومة . وتجمع المارة يستطلعون . انحنى احدهم والتقط ليرة من بين فتات الحجارة ، وضعها في جيبه ومشى ..